الثورة الخضراء في شعر محمد مصطفى الغماري

لطرشي الطيب،

قسم اللغة العربية، جامعة زيان عاشور الجلفة

توجيهات الشاعر الخضراء ومميزاتها:

فالشاعر اتخذ الاسم الانثوي (خضراء) رمزا لفكرته الموضوعية وهو شيئ معروف في عالم الشعراء، فالظاهرة تكاد تكون واسعة الانتشار زمانيا ومكانيا، في الشعر العاطفي والسياسي على السواء وفي الشعر العربي ، وفي غيره من الشعر العالمي .

فهذا الظاهرة لها اسباب متعددة ، فهي عند شعراء الصوفية كما عند الشعراء العذريين كما عند الشعراء السياسيين .

وربما أن الغماري لجأ الى المرأة لتكون قناعا لفكرته فهي راسخة في الوجدان الانساني على انها رمز العطاء والخصب والنماء ، وغير بعيد ان الشاعر

يريد ان يلقي هذهى الظلال على عقيدته ذاتها ، وهي حقا تجيد هذه الصفات ، وتمثلها اصدق تمثيل ، وبذلك يريد الشاعر ان يهرب من الاسلوب المباشر التقريري .

وهذا ما يؤدينا الى القول بان ذاتية الشاعر لا تتناقض مع موضوعيته ومن خلال استعلراضنا لبعض قصائده كقصيدة قيس وليلى وهيلانا. نلاحظ الصوت الثالث سواء تمثل بنا او بمعادل آخر يوظفه الشاعر للتأثير فب وجداننا ، هذا الصوت يتوسط بيننا وبين الشاعر في كثير من قصائده فيذهب بتا الى سنفونية الوجود التي لا يرق وترها ، الا في صحبة الاوتار الاخرى، فمثلا وجدنا انفسنا حضورا بين قيس وليلى شاهدين على نجواهم وتكوينا نار البعد او دغدغات اللقاء، نجد انفسنا كذلك في القصيدة الثانيية حيث الشاعر ومحبوبته ونحن الصوت الثالث الذي يأسى للشاعر، كما لو انه يأسى لكيانه أو وجوده، ومن المعلموم ان هذه الثلاثية المتجاوبة تخفف من صوت (الانا) وتقربنا الى ابهى صور الفن وادواته الحديثة .

ففكلرة اتحاد الذات بلاموضوع ذده تملك على الشاعر اقطار تفكيره وتهجر على في اكثر لحظات تامله أو انفتاحه على تسجيل تجربته كما نلاحظ في هذا النموذج .

أشاهد فيك رموز الضحى

كمشكاة نور تضيئء الدروب

وما اروع الشوق عند اللقاء

واروع من شوقنا ان نذوب

المنارة للاستشارات

www.

أراك ، فتخضر الحب رؤيا
وأطوي اليك حدود الزمان
بنهر المعاناة : يمتد نهرا
حبيبي اليك ويطوى المكان

في خضم هذه المشاهدة الرومانسية يستدرجنا الشاعر الى الاعجاب بمعشوقته ثم ندرك اننا امام فكرة تستهوينا مفرداتها مرورا بالصور والاطار العاطفي والفكري ، وحين النظر في المفردات : الضحى ، النور، يضيئ، في بيت شعري واحد ، انه عنصر واحد من العناصر المكونة للغة الشعرية تنسجم في الاطار الفكري لهذه العقيدة فكلمة (مشكاة) تشير الى المشكاة القرانية وهذا ما نفهمه من خلال صلة الاضواء بالفكر « الله نور السماوات ةالارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كزكب دري ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار نور على نور ...» .

ولقد استعان الشاعر بالصوفية وداب في حناياها وسبح في التجارب المعاشة لبعض الشعراء، او ما سمي بالتجارب الصوفية في الشعر والسلوك فاضاف اليها عمقا في اكثر من بعد خاصة في درجة الذوبان نفسها ومعادلها اللغوي والتصويري وسمو روحها وتوجهها ، فنجده في ديوانه قراءة في اية السيف يتطرق الى هذا النفحات الصوفية .

وتدايينا ، كما الهمس
تنائينا ، كما الحلم
اتحدنا ...
شربنا ولحظات العمر
عشناها انعتاقات حبيبة
فالمسنا طيفها الا صحونا
صحوة تبعث في الجدب خصوبة
صحوة جلت عن السكر
وجلت عن مراياه الرتيبة
لم نعاني العطش المر
ولم نجرع لهيبته!

فكلمات (الاتحاد ، الطيف ، الصحو ، السكر) وظفت في عمق وشفافية ، فالصحوة هنا ليس كمثلها صحوة ابعد من صحو بعد سكر ! وليست خمرتها تلك الخمر المعهودة ، ولا حتى خمرة

المنارة للاستشارات
www.

الصوفيين التي تعد اداة للوصل فهي خمرة « ليس فيها غول ، ولا هم ينزفون » كما جاء في التعبير القراني فنجد انفسنا امام حياة جديدة من خلال فكرة لها ابعادها الحياتية في اغوار الزمن نعبر عنها بادواتنا الخاصة .

لقد كانت التجربة الغمارية في هذا الاتجاه محط أنظار بعض الباحثين أمثال الدكتور أبي القاسم سعد الله[423] والدكتور محمد ناصر[424] والباحث الشاب يحياوي الطاهر[425]، فتطرقوا إلى ما أضافه الغماري في التجربة الصوفية في مجال اللغة الشفافة ، والصور ذات العلاقات غير المنطقية وغير المألوفة، زيادة على الموقف من الوجود وصلته بالموجود الكبير بيد أن الأستاذ : عبد العالي رزاقي يذهب مذهبا مغايرا ويرى بان التجربة الصوفية الغمارية أبعدت الشاعر عن علاج الواقع والمجتمع الذي يعيش فيه، وجعلته يضرب في مهامه بعيدة في الزمان والمكان[426] .

ومهما يكن فالتجربة الصوفية رافد عظيم من روافد الشعر القديم والحديث فقد أفاد منه شعراء محدثون اشتقوا الرمزية الغربية واستفادوا من عوالمها الكثيرة ، وهذا لا يعني إطلاقا تزكية للرمزية المذهبية ، ولكننا أنصفناها لانجازاتها في ميدان العلاقات اللغوية الخاصة.

زيادة على ان الغماري لم يستعن بالتجربة الصوفية كلية ، بل استقى منها اللغة والصور وبعض التوجهات ، وكان يرفضها سلوكا حياتيا ويقرب للإسلام القرآني لا الإسلام الصوفي ،وقد قارن الصوفية بالماركسية والمادية والعلمانية التي تقف على سبيل الحل الإسلامي ويشير إلى هؤلاء جميعا جهلهم للإسلام ، كما هاجم الصوفية التي نسبوه إليها ظلما وزورا:

أقسمت بالجرح المحدد بالشعارات الداعية
باسم الطرفية والحقيقية والوصلات الجلية![427]

وإذا كانت صوفية يقول :

ويسعدني في دفعة النور إنني
أرى الله في كل الوجود ... وألمح[428]

أو تقول

أنا أهواك ... فانشر الله ظلا

---

[423] - د/ أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الادب والرحلة ، انظر ص 149.

[424] -د/ محمد ناصر ، مقد الطبعة الثانية من اسرار الغربة ،انظر ، ص21.

[425] -الطاهر يحياوي ،البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى الغماري ، انظر ص 131.

[426] -عبد العالي رزاق ، جريدة الجمهورية ، العدد 4120 ،1978/12/11 ، الجزائر.

[427] - مصطفى الغماري ، نقش على ذاكرة الزمن ، ص 81.

[428] - مصطفى الغماري ، اسرار الغربة ، ص 8.

المنارة للاستشارات
www.

أنا أهواك ثائرا صوفيا[429]

وفي أكثر من صورة تبدو لنا صور ة المحب الورع ، الذي يعيش تجربته حنينا تنجز عنها معاناة صادقة .

وكما استعان الشاعر بالصوفيين نجده استعان بالعذريين ، فاخذ عنهم اللغة والأماكن التي يرددونها في أشعارهم فنجده في قصيدة (أنا المجنون يا ليلى!) يذكر جبل التوباذ ووادي القرى وهذا الذكر بطبيعة الحال ممزوج بالشوق والحرمان

أنا المقرور يا ليلى ! ... فهل لي واحة بكر؟
أنا الظمآن يا ليلى وأنت الماء والجمر!
شهودي في الهوى شوقا وأنت وحبنا الطهر
وقرآن الهوى أبدا حدائق في دمي خضر[430].

فالملاحظ بان الشاعر له معشوقتان نهيم بالأولى في بداية الأمر ثم ندرك ليلاه الثانية وهي العقيدة الإسلامية ، فاللغة الشعرية تشدنا إلى الأولى بينما المستوى الثاني من تأملنا يجرنا إلى ليلى الثانية ،وإذا تعمقنا في حنايا اللغة نجد الشاعر يشعر بالرد والظمأ على عكس ليلاه ،فهي جمر وماء مما يدل على الحواجز الموضوعة في وجه المبادئ الإسلامية ، ورغم هذه الحواجز فالشاعر يتطلع إلى الواقع المعاش ، أمام الإسلام الذي يريده الصليب ، والإسلام الذي يريده الحاخام ، وكلاهما مرفوض في نظره فهو يتطلع إلى الإسلام التام ..

ولعل التضاد اللغوي الذي اعتمده الشاعر يعكس هذا الفرق بين الواقع الذي يحياه الشاعر ،وبين الواقع الحلم الذي يحس به ويتقراه بعدا حاضرا وكائنا ملموسا ، والطريق في هذا التضاد اللغوي انه يدل على حس شفيف بالعلاقات اللغوية ، فالنار والجمر متضادان وهما ضدان لاسمين سابقين، وهما المقرور والظمآن ،بل إن هذا النوع من التضاد اللغوي ينحو منحى رمزيا يجعلك أمام دلالات وسمات أخرى للفظتي الجمر والماء.

وفي غالبية الأحيان ، يلجا الشاعر إلى توظيف هذا التضاد اللغوي في إظهار مميزات المفارقة المعنوية التي يريد تشخيصها، وهو تضاد قوي إلى حد بعيد.

ويستمر الشاعر في حنينه ليولد لهذا اللقاء معنا وذوقا فنيا فيكون طعم الماء للظامئ وشعاع الجمر للمقرور وهذا ما نجده في قصيدته خضراء تشرق من طهران.

عنيت جرحك يا خضراء ميعـــادا
متى اللقاء تجوب الدرب أعـــيادا
غنيت جرحك... لأصبحى بمقترب
من..ولاهمسك العذري ميـــــــادا
قلبي على بعدها يخضل زنبقـــــه
نشوى ..ويحمل من أسرارها زادا[431]

---

[429] - المصدر نفسه، ص 50.

[430] - مصطفى الغماري ، اسرار الغربة ، ص 108

[431] - مصطفى الغماري ، خضراء تشرق من طهران ، ص 15

المنارة للاستشارات
www.

وبمجرد قراءة هذه الأبيات نجد أنفسنا أما من ليلى الثانية ، وأمام بعد اللقاء الذي يزيد الشاعر حلاقة ورغم ذلك فانه يعرف السر الذي يغذيه ويقربه منها وكأنه يلمها في دمه وشرايينه ، فيجعلنا نحس بالقدرة التصويرية والصلة القوية بين التصوير والفكرة إلى حد تتجسد الصورة في مفردة من خلال موضعها في التركيب اللغوي.

فكيف يغني الشاعر جرحها ميعادا؟

وكيف يجوب اللقاء الدرب أعيادا ؟

وكيف يخضل بعدها زنبقة ؟

إنها الصورة التي يمكن أن نستعير لها التعبير النحوي (الحال الجامدة المؤولة بالمشتق) الذي يقوم مقام التشبيه البليغ الموجز الموحي وهذه ظاهرة تقريرية مطردة في شعر الغماري كما سنرى .

كما ان الشاعر يتميز برحيله الدائب وما يحتويه من معاناة وهي سمة من سمات هذا المحب ، فاعتنى بمفردات هذا السفر الذي اقترن باليابسة ، فجاءت لغته واقعية ملتصقة بالطبيعة وهذا ما أشار إليه الدكتور سعد الله في مجموعة من المفردات التي يراها تتماوج في شعر الغماري مثل (السفن ، البحار، الطفو، الرسوب ، الموج، الجزر، الشواطئ...)[432].

فالشاعر يخفي همه من خلال سفره الدائم ، فهو مفعم بالهزات ورغم ذلك فالشاعر صابر بالاستعانة بالنداءات الربانية ومسيرة الأنبياء وسعادة الأمة التي تقتدي بالإسلام ، وهذا ما نجده في إسرار الغربة.

لأجلك يا كروم الله... أهوى الشوك ....احترق

لأجلك تأكل الأسفار خطوي فالخطى رهـــــق

ولم أسأم...

ولم يصلب على شفتي الهوى الالق

وما انكفأت هموم الأمس عني...يا احبـــابي [433]

فلسفة الحياة تعني للشاعر أن الحياة وما فيها مصنوعة من احل إرضاء الخالق « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين »[434]

فهذا السفر يهدف إلى مرضاة الله والوعد الحق الذي لوحت به السماء بكل جمال رزقتها وبكل ما وراءها بهاء أعظم ، ولن يقف حتى يدرك الحلم الغائب بكل أبعاده ، ولهذا فهو يعد محبوبته بالا تنتظر والأمل مقتديا تتغزل الضياء في الأسطورة اليونانية ارتقابا بعودة المحبوب.

ليلى ... وأجمل نار الهم في وتري

إليك ... اختص الأيام فانتظري ...)[435]

وفي خضم السفر نجد الشاعر يضحي من اجل المحبوب

---

[432] - د/ أبو القاسم سعد الله ، تجارب في الأدب والرحلة ، انظر ص 150.

[433] - مصطفى الغماري ، اسرار الغربة ، ص 94

[434] -سورة الانعام اية 162.

[435] - مصطفى الغماري ، اغنيات الورد والنار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،ط 1980 ، ص 192.

المنارة للاستشارات
www.

فدى عينيك يا خضراء رقص
أجوب هواه في سري وجهري
ألم جراحه حلما وتهوى
أهازيجي خطا غده الأغر[436]

فألم الشاعر يتحول إلى حلم يراوده في السر والعلانية، ويجعله يتطلع بكل ثقة إلى غد أفضل ، ثم ينتقل الشاعر إلى مناجاة ربه تقربا وطمعا في رضاه.

وتعالى الهتاف ...لبيك
رباه ..سنفنى ليزهر القران
طال يارب في سبيلك ترحال
وأوحنا له القربان[437]

فمفردة " سبيلك" تدل على التضحية والاحتراق من أجل السعادة في هذه الحياة خالية من الظلم والاستغلال والفساد في نغم جماعي وبروح خطابية ولغة تنساب انسيابيا وتتجاوب معها العاطفة ، مما يجعلنا أمام طابع شعري أصيل وتدفق عاطفي واتحاد الذات بالموضوع فتتشابك الضمائر بين ال (هي) والـــ(أنا).

ولقد ربط الناقد الشاب يحياوي الطاهر بين هذه الانتسابية طول النفس " اذا كانت الانسيابية من وجهة أو أخرى دليلا على قدرة الشاعر ... ففن لطول النفس علاقة أكيدة بذلك..."[438]

فاذا كنا كم شخصا مفردة (خضراء) معادلا للعقيدة الإسلامية فإننا نرى بأنها لاتتناقض مع فكرة الوطن التي تعني الإخلاص والتضحية .

ففكر الولاء للوطن تظهر جلية في معظم دواوين الشاعر كما سبق ون ذكرناه ، وتتجسد من خلال رموز كثيرة ، وعلى الرغم من مشاعر الغماري التي تقوى على الحدود ، وتخترق المسافات فانه يبقى مشدودا إلى الوطن الصغير يعني تاريخه البعيد والقريب .

أهواك يا وطني **** والله تهواه
ترابك العبقري **** يقول رباه
نوفمبر الأخضر**** يا حبنا الأكبر
يا ألف قافية **** من جرحنا تزهر
غنى بها الحادي **** وجلجل المنبر
فاخضوض النادي *** في عريس نوفمبر[439]

---

436 - مصطفى الغماري ، خضراء تشرق من طهران ، ص 29

437 - مصطفى الغماري ، نقش على ذاكرة الزمن ، ص 26.

438 - الطاهر يحياوي ،البعد الفني والفكري عند الشاعر مصطفى الغماري ، انظر ص 151.

439 - مصطفى الغماري ، اغنيات الورد والنار ، ص 192.

المنارة للاستشارات
www.

فمفهوم الشعر الإسلامي للوطن والوطنية به يختلف اختلافا جزئيا عن بعض المفاهيم التي ظهرت في عصر الاحتلال ، فهو لا يقدس الوطن لذاته ويعتبره رقعة جغرافية بها بشر لهم عقيدة ورسالة ، فالدفاع عن الوطن مرتبط بالدفاع عن العقيدة ويرى بان أهل الوطن الخالي من هذه الفكرة ليس وطنا

حين يحب الإسلام أهداب ارض

فمحال أن تمطر الأوطان [440]

فالوطن متجسد في العقيدة ، وهي متجسدة في وحب الشاعر ينبع من الفطرة قصد التطلع إلى الأعلى

أهواك يا وطني **** والله تهواه

ترابك العبقري **** يقول رباه[441]

والى جامب مفردة حمراء نجد كلمة بيضاء ربما يعني العقيدة الإسلامية نفسها

وعلى (البيضاء) كنا ...

ليتنا لم نعرف القيد ، وقد كنا ، انعتاقا ...[442]

ويظل إحساس الشاعر ملتصقا بهذه الفكرة دونما حدود

تغربت عن موطني للهوى

وللحب أعنتيني للوطن

وما وطن العاشقين سوى

فواصل يحضر منها الزمن[443]

فالشاعر كله أمل وعطاء وحماس ، فهو يدافع عن هذه العقيدة بكل قوة.

وتبقين ، يا أنت ، بعدا مديدا

بحجم الفتوح ، وكبر السماء !

تشيعين في لكل درب ربيعا

وفي كل نفس عبير الإخاء

والظاهر أن كل لفظة من ألفاظ الشاعر تعبر عن الإعجاب بهذه العظمة التي تملأ نفسه ، فلا يملك إزاءها إلا الانهيار ...(يا أنت) .. حجم الفتوح .. كبر السماء .. كل ذلك دلالة على هذا الإعجاب ...فضلا عن كل هذا

---

[440] - مصطفى الغماري ، نقش على ذاكرة الزمن ، ص 27.

[441] - مصطفى الغماري ، قراءة في زمن الجهاد ، ص 22.

[442] - مصطفى الغماري ، قراءة في اية السيف ، ص 75.

[443] - مصطفى الغماري، قراءة في زمن الجهاد ، ص 41.

المنارة للاستشارات
www.

...كل درب...كل نفس ، وكل هذه المساحة الواسعة التي نسج بها روح العقيدة ... ربيعا ...وعبير أخوة ... وربما كانت هذه (العين) المتكررة... (تشجعين ، ربيع ، عبير) تجسيدا لهذا النوع من الحب والإعجاب .

ثم يلتفت الشاعر الى هذه العقيدة فيجدها ملء الحضور ، ملء كيان الشاعر ، وملء الوجود كله ، تبحر في رحم الزمن ، وتمد ظلها على رحاب الحاضر والمستقبل.

وأنت... برغم الجليد ، حضور

وأنت برغم الجفاف ، أزهار[444]

ورغم هذا الجليد فإنها لم تزل غطاءا سخيا أبديا

ولأنت في دمنا حضور مطلق

وغد بأجيال الضحى يخضر صر[445]

ففكرة الحضور المطلق للعقيدة يكتنف فكر الشاعر لأنها ببساطة كيانه.

هي إن جفت مرايا العصر خضراء الظلال

في ليالي الوجد نحياها

وتحيا في البنين

الغد الممتد في أعماقهم حر الجبين ...[446]

ومن الملاحظ ان الشاعر أخذ جل مفرداته من الطبيعة ، وشكلت احد العناصر الأساسية للغة الشعر الشعرية ، وهذا راجع لارتباطه لهذه الخضرة الدائمة التي تمثلها عقيدته ،وفي هذا إيحاءات رمزية ثرية يعيدنا إلى فطرية اللغة الأولى وتفانها وارتباطها بالطبيعة (الأم)

وبهذا يتيقن الشاعر استحالة الموت لهذه العقيدة الربانية .

قتلوها ألف مرة صلبوها ألف مرة

احرقوها ألف مرة

زرعوا الشوك على الأعتاب ..

مدو ألف صخرة ...

واستوت، يا كبرها " البدري " مهرة .

خطرت في هام الشمس

---

444 - مصطفى الغماري، قراءة في زمن الجهاد ، ص 35.

445 - مصطفى الغماري، خضراء تشرق من طهران ، ص 129.

446 - مصطفى الغماري، قراءة في اية السيف ، ص 60.

المنارة للاستشارات
www.

وفي عمق المجرة ! ![447]

وفي كنف الالتحام نجد الشاعر يتساءل بحرارة .. ترى ماذا سيكون لو لم تزر وجودنا هذه العقيدة ؟! كيف سيكون وجه التاريخ ؟ وجه الام التي خلفتها العقيدة ؟ بل وجه الشاعر المحب المتيم ؟...فهذه التساؤلات يجيب عنها الشاعر

آه... لولا كرمة **** من هداها اسكر

آه.. لولا نجمة **** في مداها أبحر

لا اعتراني مثلما**** يعتري العقل الجنوب

مبهم يشقى الظمى **** من عناقيد الظنون [448]

ويقول أيضا :

لولاك يا أغنية الحلم الذي

أناني مسافة حبه

أتعمق

في دفنه الصوفي عانيت الهوى

ورأيت وجهك بالمواجد يعبق

يشتاقه الفقراء ... أنت مداهم

لولاك يا شجر الضحى لم يعشقوا [449]

فلو خضراء ... ما كان شعر ، ولا كان حب .. ولا كان حلم يغنيه الشاعر، ويعاني الهواء في مداه ..فمن يكون المجنون لولا (ليلى) ، ومن سيكون شاعرنا لولا هذه الكرمة التي يسكر في هواها ... ولولا هذه النجمة التي يبحر في مداها ؟ !

بهذا اللغة الصوفية يعبر الشاعر عن مواجدة ، وقد أشرنا الى جانب من هذه اللغة عند الحديث عن علاقة الشاعر بالصوفيين ، أما الآن فتستوقفنا هذه الصورة.

مهما يسقى الظمى **** من عناقيد الظنون

---

[447] - مصطفى الغماري ، قراءة في اية السيف ، ص 60.

[448] - مصطفى الغماري ، نقش على ذاكرة الزمن ، ص 66.

[449] - مصطفى الغماري ، اغنيات الورد والنار ، ص 192.

المنارة للاستشارات
www.